من نافذة التاريخ

محرر

صدرت حديثاً في لندن حلقة جديدة من السلسلة المعروفة « بحكمة الشرق » Wisdoms of the East Series. تناولت المزيدة الخالصة « لباب اللباب من فلسفة مؤرخ العرب الأشهر العلامة عبد الرحمن بن خلدون كما رسمها في مقدمة تاريخه العظيم ، وإن لم يعين لبتمه وليد خليه كما كان يهوى ، أو ليطبّق في أصاعيفه المبادىء التي أختطها في مقدمته ، فجاءت نسخته الأصلية من التاريخ وفيها صفحات بيضاء عديدة ، ولعله ترك لقرائه أيضاً ذلك التطبيق بعد أن أوضح لهم مذهبه في الأسباب والنتائج وفي مقاييس الحوادث ، ولكنه بعمله الخالد كان سابقاً لزمنه ، وكان أول مؤلف عرفناه في فلسفة الاجتماع والتاريخ ، وكان إماماً هادياً نزيهاً عظيماً لن يستغني العرب عن التزود من تعاليمه والانتفاع بها ما داموا يتطلعون الى مجد جديد .

ذكرني ظهور هذه الحلقة من السلسلة بواجب أدبي عليّ في تعاوني مع (صوت أمريكا) ، فليس بما أتوخى اذاعته من خطرات عن روائع الأدب العربي أو الأدب الأمريكي ، ومن قبسات من سماء الفن ، ومن ذكريات الأعلام ، ومن صور متفاوتة من مرائي الحياة ، ونحو ذلك من موضوعات جلية ، — ليس شيء من هذا ولا كل هذا بالذي يعفيني من التطلع من شرفة التاريخ أو من نافذته الى حوادثه وعبرها مشركاً معي المستمعات والمستمعين فيما يجب أن لا يفوتنا علمه .

والعناية بالتاريخ من تقاليد الثقافة العربية منذ قرون حتى بلغ عدد المؤرخين العرب زهاء ستمائة مؤرخ في القرون العشرة الأولى من الهجرة ، كما تعددت مناحيهم في تناول موضوعات التاريخ ، ويعنيهم أعلام من أهل التحقيق والفكر السليم تمتاز جميعاً بسيرتهم ، كما يذكرهم بالتبجيل أحرار الفكر للعلمون والمتأملون في الأقطار المختلفة .

وحسبي في هذا الحديث الأول ، بعد الاشادة بأهمية التاريخ في اليقظة الانسانية ، وبقيمته كمادة أدبية لا تنمى ، أن أنوّه بالشخصيات العالمية بين مؤرخينا القدامى وبآثارهم البارزة النفع للعرب .

في طليعة هذه الشخصيات الجديرة الباقية الذكر محمد بن جرير الطبري أول من وضع تاريخاً كاملاً في اللغة العربية ، وإن أتبع طريقة العرب القديمة — طريقة التوقيت في التأريخ ، ذاكراً حوادث كل سنة مستقلة ، خلافاً لطريقة الاغريق الذين كانوا يعدون التاريخ تراجماً لتخصص . عاش الطبري بين السنة الثمانمائة والثامنة والثلاثين والسنة التسعمائة والثالثة والعشرين وعلى هذا فقد شغل نحو أكثر من ألف سنة . فقد كان مفكراً حراً جريئاً جبّار الذهن ، وكان موسوعة معارف متعددة ، كما كان آية في صدق القول الصريح ، وبلغ من تفكيره الصريح أن أنشأ مذهباً دينياً خاصاً به أكثر تقدماً من المذاهب المعروفة في زمنه ، فتعرض في بغداد لثورة الحنابلة عليه . ويعد تاريخه العظيم أهم مصدر للتاريخ الاسلامي من الهجرة حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، مع احتوائه أيضاً على معلومات قيّمة عن العصر الجاهلي . وقد عني بتذييله مؤرخون تالون من أهل المكانة حتى أبلغوه نهاية القرن الخامس الهجري تقريباً ، كما عني باختصاره غير كاتب وكاد يضيع الأصل وسط هذه المختصرات ، لولا عناية المستشرقين بجمع أجزائه المصورة من عواصم شتى وطبعها في مدينة ليدن في مستهل هذا القرن . وأقل ما يجب عمله إزاء هذا الامام الجليل الذي يعد أبا للتاريخ الاسلامي ، أن تصدر طبعة أخرى محققة من تأليفه (أخبار الرسل والملوك) وفاقاً للموضوعات لا تبعاً لمجرى السنين ، مع شروح وتحقيقات في صورة هوامش تقوم بها لجنة للنشر تختار من الأعلام المؤرخين الباحثين . وان ما يهمنا في ذكرى هذا الامام العلامة ، إلى جانب التنبيه الى الانتفاع العام بدراسة تاريخه العظيم ، والتنويه بمعارفه الواسعة ، أن نمجد خلقه العالي ونفسيته السامية التي لم يبدّلها الفقر ولا الغنى ، فضرب المثل لكل من يريد أن يتصدّر للخدمة العامة من حب التواضع وإيثار مصلحة الناس وإرضاء ضميره أولاً وأخيراً وناهيك برجل يثقف أولاد الأعيان كان عبيد الله بن يحيى وزير المتوكل ثم لا يرتضي إلاّ أن يعيش عيشة متواضعة ولا يؤمن إلاّ بارستقراطية الفكر والعلم . وهو فخر بعينه الرجل الذي تبدّلت ظروفه وما تبدّلت عزة نفسه حتى عندما اضطرته الفاقه الى بيع كمي قميصه ليشتري الخبز !

وكان في مقدمة المؤرخين الذين استفادوا كثيراً من الطبري وبنوا على أساسه ، المؤرخ اللامع ابن مسكويه وزير مالية عضد الدولة البويهي ، فقد ألف تاريخه القيم (تجارب الأمم) بادئاً بالخليقة ومنتهياً بسنة ٣٦٩ هجرية ، وقد عني المستشرقون بطبعه في ليدن واحتفوا به إن غفلنا . ويمتاز تاريخه بتناول الشؤون الاقتصادية والاجتماعية

وبنظراته الشخصية في أحداث الأمم ونقدانه إياها ، ولكنه صار على نهج الطبري في التأريخ للسنين . والاطلاع على تاريخه كالاطلاع على تاريخ الطبري رياضة أدبية لغوية ، وتمرس بأساليب بيانية فنية ، الى جانب ما يحتويه من فوائد وعبر من سير الرجال والأمم . وابن مسكويه رجل عظيم النفس ، فقد كان من وزراء الدولة البويهية ، وعلى الرغم من ذلك لم يبع ذمته لها ، بل وزن أعمالها بميزان الحق وحده فقال ما لها وما عليها — شأنه في جميع أحكامه . وهذه شخصية أخرى رائدة يحق للعرب الاعتزاز بها واستلهام عظمتها .

وشخصية ثالثة عظيمة أعقبت ابن مسكويه ، ولكن بعد ثلاثة قرون ، هي شخصية العلامة الجليل ابن خلدون الذي انتشت بهذا الحديث النبوي بالاشارة إليه . فقد ظهر ابن خلدون في القرن الثامن الهجري بلون جديد للتأريخ ولدرسه وتقيمه لم يكن معهوداً من قبل ، فساعده في ذلك تجاربه الفذة في المغرب والمشرق واتصالاته العديدة بالسلاطين أو الأمراء والحكام ومفاوضاته السياسية التي شملت حتى تيمورلنك ، إلى جانب اطلاعه الواسع وعبقريته الأصيلة . وتراثه المطلقة وقد جاء ويا زال تحفة رائعة تاريخه المسمى (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) فقد وضع به فعلاً أصول علم التاريخ ، وروى في رواية مطلقة ما روى من الحوادث حسب الموضوعات بدل السنين ، وجاءت مقدمة تاريخه سجلاً نفيساً لفلسفة الاجتماع ومقاييس الحوادث وتطورها وتاريخه لا يمتد إلى ما بعد القرن الثامن الهجري فقد توفي سنة ٨٠٨ هـ .

وشخصية رابعة من هذا الطراز الجليل الفاذ ، والذي يهمنا لا تقوم للامم قائمة ، هي شخصية المقريزي صاحب الخطط الشهيرة عن مصر الاسلامية ، فهو تلميذ ابن خلدون ومقتفي أثره وغير النزر على هؤلاء الأعلام هو دراسة مؤلفاتهم والاقتباس منها والاشادة بتعاليمهم النيرة الحرة .